كِتَابُ الاسْتِقْصَاءِ لِأَسْرَارِ سُورَةِ التَّوْبَةِ

دراسة تفصيلية شاملة في التفسير، التاريخ، والبيان اللغوي

جمع وتحقيق علمي متكامل للقرآن الكريم وسيرته

Researcher: Ghousoun bint Al-Siddiqa

الـمُـقَـدِّمَـةُ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.. أما بعد:

فإن سورة التوبة (أو براءة) تمثل منعطفاً تشريعياً وتاريخياً فريداً في تاريخ الأمة الإسلامية. إنها سورة الفصل والوضوح، التي نزلت لتنظم العلاقات السياسية الخارجية للدولة الناشئة، وتطهر الصف الداخلي للمجتمع من درن النفاق والمواقف الرمادية.

وقد صنفنا هذا الكتاب ليكون مرجعاً دقيقاً ومستوعباً لقصتها، آياتها، أسباب نزولها، وأسرارها اللغوية بأسلوب علمي رصين يحاكي كتب التحقيق التفسيري والموسوعات التاريخية، بعيداً عن الاختصار المخل أو الإطناب الممل.

الفصل الأول: فقه الاستهلال وأسرار غياب البسملة

تبدأ سورة التوبة باستهلال زلزالي قوي يهز النفوس، حيث جُردت من البسملة لتبدأ مباشرة ببيان سيادي قاطع:

> **« بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ » [التوبة: 1]**

التحقيق العلمي لغياب البسملة:

لقد أجمع علماء الأمة وصحابة رسول الله ﷺ على خلو سورة التوبة من البسملة في مطلعها، ويعود ذلك إلى مسارين رئيسيين عند أهل العلم:

1. **دلالة المعنى والظرف (مذهب علي بن أبي طالب):** أخرج الحاكم في المستدرك والزركشي في البرهان عن علي رضي الله عنه أنه قال: "إن (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ) أمان، وبراءة نزلت بالسيف والنبذ، ليس فيها أمان". فالأمر هنا قطع للصلة مع الناكثين وإعلان للحرب والعقوبة، ولا يتناسب مقام الغضب الإلهي والوعيد مع تصدير آيات الرحمة والأمان.
2. **دلالة النظم والجمع (مذهب عثمان بن عفان):** عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم)؟

فقال عثمان: "كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد، فكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها تشبه قصتها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فظننت أنها منها، فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر البسملة".

3. **قوة الابتداء الصاعق ولغته:** تبدأ السورة بكلمة (بَرَاءَةٌ) وهي مرفوعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره "هذه براءة". الابتداء باسم نكرة في مقام الوعيد يحمل دلالة لغوية تعني الإطلاق والقطع التام، وهو ما يعطي النص قوة تصديرية تُفزع الطرف الآخر فور سماعها.

الفصل الثاني: التقسيم السياسي والأحكام الدولية للمشركين

نزلت الآيات الأولى من السورة لتضع خريطة طريق سياسية حاسمة لإنهاء الوثنية السياسية والعسكرية في جزيرة العرب. وقسمت الآيات المشركين المعاهدين بناءً على أفعالهم ووفائهم بالعهود:

أولاً: إعطاء مهلة السياحة للناكثين

> **« فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ » [التوبة: 2]**

هؤلاء هم مشركو العرب الذين نكثوا عهودهم مع المسلمين وظاهروا الأعداء عليهم، فأمهلهم الوحي أربعة أشهر كاملة (تبدأ من يوم الحج الأكبر العاشر من ذي الحجة وتنهي في العاشر من ربيع الآخر) ليرتبوا أمورهم: إما الدخول في الإسلام طوعاً، أو الهجرة ومغادرة حدود الدولة، أو القتال بعد انقضاء المدة.

ثانياً: إعلان البراءة يوم الحج الأكبر

> **« وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ » [التوبة: 3]**

أرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب ليلحق بأبي بكر الصديق (أمير الحج) ويعلن هذا النبذ بـ "أذان" (أي نداء جهري عام) في مجامع الحج، لتطهير البيت الحرام وإلغاء تقاليد الجاهلية (كالطواف بالبيت عراة)، وإبلاغ القبائل بسقوط العهود القديمة بسبب غدرها ونكثها.

ثالثاً: الاستثناء الإلهي لأهل الوفاء

> **« إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » [التوبة: 4]**

هنا يتجلى الإنصاف القرآني والعدالة المطلقة؛ فالقبائل التي حافظت على عهودها مع المسلمين ولم تنقص الشروط ولم تعن الأعداء (مثل قبيلتي بني ضمرة وبني كنانة)، أمر الله الصاحبة بإتمام عهودهم حتى نهايتها المقررة تاريخياً، ولم تشملهم البراءة الفورية أو مهلة الأشهر الأربعة.

الفصل الثالث: تفكيك "آية السيف" وضابط الاستجارة الإنساني

أولاً: نص آية السيف وسياقها الحقيقي

> **« فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » [التوبة: 5]**

السياق والمفهوم: "آية السيف" هي أمر عسكري استراتيجي مرحلي لتطهير المعقل المركزي للرسالة (شبه الجزيرة العربية) وتأمين حدود الدولة الناشئة ضد المتربصين بها من قاطعي العهود والموالين للقوى الخارجية (كالروم والفرس). وهي ليست إذناً عاماً بقتل المسالمين أو غير المسلمين حول العالم كما يُشاع خطأً.

ثانياً: ميزان الأمن الإنساني (قانون الاستجارة)

لحماية النفس البشرية، وضمان عدم وقوع الظلم على جاهل بالدين، أنزل الله مباشرة الآية السادسة لتضبط آية القتال:

> **« وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ » [التوبة: 6]**

الحكم الفقهي الدوليإذا طلب أي مقاتل من الأعداء الأمان ليأتي إلى بلاد المسلمين مستمعاً أو متعلماً أو مستكشفاً حقيقة الإسلام، وجب على الدولة تأمينه وحمايته، فإن اختار بعد سماع القرآن وبلاغ الحجة ألا يسلم، **يحرم قتله** ؛ بل يلزم القانون القرآني المسلمين بأن "يبلغوه مأمنه"، أي يعيدوه إلى أرضه وقبيلته سالماً آمناً حراً تحت حراستهم. وهذا يثبت أن الإسلام يهدف لبلاغ الحجة ونشر الهداية، لا لإراقة الدماء.

الفصل الرابع: التشريح النفسي لمجتمع النفاق (الفاضحة)

اهتمت سورة التوبة بتفكيك الجبهة الداخلية للمدينة المنورة، وكشف طوايا النفوس والعلل النفسية للمنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك (جيش العسرة) عام 9 هـ:

1. فتنة التهرب بداعي الشهوة الورعة

> **« وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » [التوبة: 49]**

سبب النزول: جاء الجد بن قيس (أحد أعيان النفاق) إلى النبي ﷺ يعتذر عن الخروج لتبوك قائلاً: "يا رسول الله، قد علمت الأنصار أني مستهتر بالنساء، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر (الروم) أن لا أصبر، فائذن لي ولا تفتنّي". ففضح القرآن هذا الورع الزائف، وبيّن أن تخلفه عن نصرة الحق هو السقوط الحقيقي والفاضح في الفتنة والهلاك.

2. معالجة التثاقل الأرضي والجسدي

> **« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ » [التوبة: 38]**

البيان اللغوي:جاء اللفظ الإعجازي المشدد (اثَّاقَلْتُمْ) ليرسم بالصوت والحروف صورة جسد الإنسان وهو ينجذب بالقصور الذاتي نحو الطين، والقعود، والراحة في ظلال الثمار، محذراً المؤمنين من هذا العائق النفسي والجسدي.

3. خيانة "مسجد الضرار" والتآمر السياسي

> **« وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » [التوبة: 107]**

القصة التاريخية: قام اثنا عشر رجلاً من المنافقين ببناء مبنىً بظاهر التعبد، وباطنه وكر سري وجاسوسي بإيعاز من "أبي عامر الراهب" الذي فرّ للشام ليجلب جيش الروم. وطلبوا من النبي

ﷺ أن يصلي فيه قبل خروجه لتبوك ليمنحهم الشرعية، فكشف الله خبيئة نفوسهم وأنزل التوجيه الصارم لنبيه:

> **« لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ » [التوبة: 108]**

الحكم: أرسل النبي ﷺ عمار بن ياسر ومالك بن الدخشم وغيرهم فهدموا البناء وأحرقوه، ليؤصل الإسلام قاعدة تاريخية: أن دور العبادة والمنصات إذا أُسست للإضرار وشق صف جماعة المسلمين والتآمر، بطلت شرعيتها ووجب هدمها.

الفصل الخامس: فقه الاقتصاد وحراسة أموال الضعفاء

أولاً: حصر مصارف الزكاة الثمانية

> **« إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » [التوبة: 60]**

سبب النزول الدقيق: كان المنافقون يهمزون النبي ﷺ في تقسيم الغنائم والأموال ويتهمونه بالمحاباة السياسية. فقطع الله دابر أطماعهم بنزول هذه الآية الكريمة المصدرة بأداة الحصر القاطعة (إِنَّمَا)، ليثبت للجميع أن قسمة أموال الزكاة والصدقات تولى الله تشريعها بنفسه من فوق سبع سموات ولم يكلها لملك مقرب ولا لنبي مرسل، حماية لحقوق الضعفاء والمعوزين.

ثانياً: عقوبة كنز الأموال الشحيحة

> **« وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ » [التوبة: 34-35]**

التحقيق الفقهي والبياني: الكنز شرعاً هو كل مال وجبت فيه الزكاة ولم تؤدَّ، وإن كان ظاهراً على وجه الأرض. وقد خص الله (الجباه، والجنوب، والظهور) بالكيّ يوم القيامة لأن الغني البخيل إذا رأى الفقير يطلب حقه عبس بوجهه (جبهته)، فإذا أصر الفقير ولى عنه بجانبه (جنبه)، فإذا ألح الفقير أعطاه ظهره مستكبراً (ظهره)، فعوقب بكيّ ذات الأعضاء السلوكية التي عصى بها.

الفصل السادس: الملحمة التربوية للثلاثة الذين خُلفوا

سجلت السورة أروع وأدق محاكمة نفسية واجتماعية في تاريخ الإسلام، حيث عالجت قضية ثلاثة من خيرة الصحابة (كعب بن مالك، مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية)، والذين تخلفوا عن غزوة تبوك تكاسلاً لا نفاقاً:

> **« وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » [التوبة: 118]**

- **معنى (خُلِّفُوا):** المعنى الدقيق في ظلال السياق اللغوي أي: "أُرجئ قبول توبتهم وأُخر البت في قضيتهم" ولم يكن تخلفهم عن الغزوة فحسب؛ فبينما قبل النبي ﷺ الأعذار والحلف الكاذب للمنافقين ووكل سرائرهم لله، عزل هؤلاء الثلاثة اجتماعياً ونفسياً عقوبة لهم على صدقهم وتكاسلهم.
- **المقاطعة الشاملة:** دامت المقاطعة خمسين ليلة كاملة، حتى هجرهم القريب والبعيد، وأمروا بفراق زوجاتهم (دون طلاق) طاعة لأمر رسول الله ﷺ، وضاقت عليهم الأرض بنفوسهم.
- **الاخبار الإقليمي الشديد:** في قمة هذا الكرب، وصل كعباً كتابٌ من ملك غسان (القوة السياسية الموالية للروم) عبر رسول يقول فيه: "قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك". فما كان من كعب الصادق إلا أن قال: "وهذا أيضاً من البلاء!" ويمم بالكتاب صوب التنور وأحرقه فوراً.
- **النتيجة التربوية للصدق:** لما علم الله صدق معادنهم ونقاء بواطنهم وثباتهم على الولاء للدولة الإسلامية رغم الجفاء، أنزل توبتهم مخلدة تتلى في المحاريب ليوم القيامة، ليرسخ القرآن قيمة أن: الصدق التام والاعتراف بالخطأ مآله النجاة الحتمية مهما اشتد الكرب.

الفصل السابع: الخاتمة المعجزة وآية المصحف

> **« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » [التوبة: 128-129]**

اللطيفة الإسنادية والتاريخية لجمع المصحف:
في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عندما كُلف زيد بن ثابت بجمع القرآن وتتبعه من الصدور والرقاع، وضع شرطاً صارماً: ألا يكتب آية حتى يجدها مكتوبة في الرقاع بين يدي رسول الله ﷺ ويشهد عليها شاهدان من الصحابة حفظاً.

يقول زيد بن ثابت: "فتتبعتُ القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال، حتى وجدتُ آخر سورة التوبة مع خزيمة بن ثابت الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره مكتوبة: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...)". وكان خزيمة هذا هو الذي جعل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين لصدقه وأمانته. فثبتت الآيتان في ختام السورة بإجماع وتواتر الأمة.

دلالة الختام: تؤكد الخاتمة العظيمة أن كل هذه التشريعات الصارمة، وفضح المنافقين، وبناء الكيان العسكري والدولي، لم يكن بداعي التسلط أو التجبّر؛ بل قادها نبيّ يفيض قلبه رأفة، ورحمة، وحرصاً على نجاة البشرية وإخراجهم من ظلمات الوثنية والنفاق إلى نور التوحيد والصدق.